مجلة السياحة والآثار، م٢٩، ع١، ص ص ١٦٧ - ١٧٩، جامعة الملك سعود، الرياض(٢٠١٧م/ ١٤٣٨هـ).

الأبعاد الدلالية للبساطة الزخرفية في فنون موقع دادان (الخريبة)

د. عبد الرحمن بن عبدالعزيز السحيباني [١]
د. محمد بن علي الحاج [٢]

ملخص البحث : يعنى هذا البحث بدراسة الأبعاد الدلالية للبساطة الزخرفية في فنون موقع دادان أحد أهم المواقع الأثرية الواقعة في شمال غرب الجزيرة العربية، الذي كُشف فيه خلال المواسم السابقة عن مادة معمارية وفنية جيدة يمكن من خلالها رسم صورة أولية عن الحياة الاجتماعية والدينية، فضلًا عن معلومات شتى ترتبط بالجوانب الحضارية والفنية التي خلفها إنسان ذلك الموقع، والتي ميزته عن باقي الجوانب الحضارية والفنية للممالك المجاورة، ولعل من تلك الميزات البساطة الزخرفية على الفنون المعمارية والنحتية بمختلف أشكالها خاصة تلك الفنون المرتبطة بمجالات الحياة الدينية التي هي مدار بحثنا هذا الذي نأمل من خلاله الإجابة عن عدد من التساؤلات المتعلقة بها، وطرح إجابات أولية عنها.
الكلمات المفتاحية: دادان، زخرفة، الخريبة، فن، أبعاد دلالية.

The semantic dimensions for the simple decorative in the art of Dadan Site (Khraibah)

Dr. Abdulrahman Alsuhaibani [1]
Dr. Mohammed Ali Al-Hajj [2]

Abstract: This article focuses on the study of the semantic dimensions for the simple decorative in the art of Dadan Site one of the most important archaeological sites located in the northwest of the Arabian Peninsula, which archeological excavations showed different architectural elements through which it is possible to know some details of social and religious life, as well as various information related to the civilizational and historical aspects, left by people of that site, which distinguished theme from the rest of the architectural and sculptural arts in the neighboring kingdoms.

The most important of these features is the simple decorative in the architectural and sculptural arts in all its forms, especially those related to the arts of religious life, which it is the focus of our research.

Keywords: Dadan, decorative, Khraibah, art, semantic dimensions

(١) أستاذ العمارة القديمة المساعد، قسم الآثار-كلية السياحة والآثار- جامعة الملك سعود.
(٢) أستاذ النقوش العربية القديمة المساعد، قسم السياحة والآثار، جامعة حائل.

(1) Assistant Professor, Department of Archeology, College of Tourism and Archaeology, King Saud University.
(2) Assistant Professor, Department of Tourism and Archeology, University of Hail.

مقدمة:

يُعتبر موقع الخريبة الأثري من المواقع المهمة الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية فقد كان قديمًا مدينة مزدهرة ومحطة تجارية على الطريق التجاري القديم الرابط بين وسط الجزيرة العربية وشمالها الغربي (خارطة ١)، وفي ذلك المكان قامت حضارة مملكتي دادان ولحيان اللتين عاصرا كثيرًا من ممالك جنوب الجزيرة العربية حينها كمملكة سبأ وقتبان ومعين وحضرموت، وقد دلت الاكتشافات الأثرية والنقشية في موقع دادان (الخريبة) أن النتاج الحضاري لشعوب تلكما المملكتين لم يكن ليقل أهمية عن باقي نتاج ممالك الجزيرة العربية قديمًا خصوصًا، وحضارات الشرق الأدنى عمومًا.

وتُعدُّ دراسة فنون موقع الخريبة (دادان) التي كُشف عنها خلال المواسم السابقة من الأهمية بمكان نظرًا لما أظهرته من معلومات جديدة تختص بتنوع موضوعاته وأساليبه الفنية، والقدرة الفائقة لدى النحات الذي عاش في هذا الموقع في استغلال الصخر المحلي لتجسيد مختلف الفنون النحتية والمعمارية، كالمنشآت الدينية، والمجامر، وموائد القرابين والمذابح، وأواني الحجرية والفخارية، وأدوات الزينة، والمسارج، وغير ذلك.

ولعل من أهم تلك الفنون، هو فن نحت الأشكال الآدمية ذات الأحجام المختلفة التي يصل طول قامات بعضها إلى حوالي أربعة أمتار، في هيئات مثالية تمتاز بتناسق أجزائها والعناية في إبراز كثير من تفاصيلها ذات الطابع المحلي والمتأثرة بملامح مدارس الشرق القديم (السعيد وعمار،٢٠١٣م – ٢٠١٤م: ٢٢٤- ٢٤٥، الزومان، ٢٠١٥م: ٨٩-٩٠) ، فضلًا عن مختلف الفنون الأخرى التي أظهرت قدرة فنان موقع الخريبة. في التعامل مع مختلف تلك الفنون وإخراجها في أشكال

خارطة (١): طرق التجارة العربية القديمة وعليها موقع دادان (الخريبة). عن: كتاب طرق التجارة العربية، ٢٠١٠م: ٣٢.

لائقة تنم عن خبراته المتراكمة، ومع ذلك قد غفل عن إبراز فنون أخرى تستدعي كثير من التساؤلات، أبرزها هو لماذا لم يهتم فنانو موقع الخريبة بتجسيد مختلف الزخارف النباتية والحيوانية على فنونهم الدينية والتذكارية ذات الطابع النذري المقدم للإلهة اللحيانية في ذلك الموقع، رغم معرفتهم بتلك الفنون وتجسيد بعضها بشكل متواضع وطفيف جدًا؟ ونحت تماثيل ضخمة، رغم قوع مركز حضاراتهم وهو موقع الخريبة في منطقة التقاء القوافل التجارية وعبورها. فعند النظر للكم الكبير من المعثورات الأثرية، الذي كشف عنها في موقع الخريبة من خلال التنقيبات التي أجراها قسم الآثار بجامعة الملك سعود على مدى ثلاثة عشر موسماً متواصلاً يبرز ذلك التساؤل بشكل بديهي عن ماهية الأبعاد الدلالية للبساطة الزخرفية على تلك المعثورات التي يمكن وصف نتاجها الزخرفي بالفقير.

هذه الدراسة سنتناول جوانب من تلك الأبعاد الدلالية المرتبطة بالفنون الزخرفية المعمارية والنحتية التي عثر عليها بموقع الخريبة، وتحديدًا الأسباب المتعلقة بالبساطة الزخرفية على فنون ذلك الموقع التي عثر عليها خلال المواسم السابقة، وعدم استخدام الفنان الزخارف لملء المساحات على الأعمال الفنية المعمارية والنحتية، وعزوفه عن سد الفراغات الصارمة على السطوح المعمارية الداخلية للعمارة الدينية، وما يرتبط بها من تقدمات نذرية كالمجامر، والمذابح والأواني الفخارية وغيرها من الفنون النحتية.

وقبل ذلك لابد من عمل استعراض موجز لأنواع النماذج الفنية التي عثر عليها في موقع الخريبة خلال أعمال التنقيبات الأثرية التي أجريت فيه في المواسم الماضية، ونسبة الزخارف المنفذة على تلك الأعمال وأنواعها بهدف الخروج لتصور مجريات البحث والأسباب التي أدت إلى تناوله.

أولًا: العمارة الدينية:

كشفت نتائج التنقيبات التي أجراها قسم الآثار بجامعة الملك سعود خلال التنقيبات التي نفذها في موقع الخريبة عن وحدات معمارية عدة وما يتصل بها من عناصر معمارية، أبرزها عمارة المجمع الديني الذي مر بثلاث مراحل معمارية ربما تمثل مراحل زمنية مستقلة وبعض الملحقات المعمارية التابعة له المبنية بالحجارة المحلية المتوفرة في موقع دادان حيث السفوح الجبلية الشرقية المحيطة بالموقع، وقد تميز بناء تلك الوحدات المعمارية بدقة بنائها والقدرة على قطع الأحجار بطريقة متقنة بهيئة رقائق مسواة وأخرى مستطيلة ومربعة الأوجه، خاصة في بناء الواجهات المشكلة للوحدات المعمارية من الداخل والخارج، والتي يعتقد أنها تعود لأقدم المراحل الاستيطانية في الموقع (الديري والعتيبي، ٢٠١٣-٢٠١٤م: ١٤٢-١٤٣) ، والمشاهد للجدران الداخلية لتلك المنشآت الحجرية الدينية وما يتصل بها من عناصر معمارية يجد أنها بنيت بأحجار مصقولة مسواة (لوحة ١) تقوم على أساسات عريضة متماسكة بهدف تدعيمها.

في وجود وحدات معمارية أخرى تمثل المراحل اللاحقة من الاستيطان العشوائي المتأخر، وأن حجم الزخارف المستخدمة في تزيين مجمل تلك المنشآت المعمارية تكاد تكون معدومة إذا ما قارناها بالزخارف المعمارية الداخلية لعمارة معابد جنوب الجزيرة العربية المتمثلة في الرموز الدينية المختلفة والنوافذ الوهمية المصمتة، وتيجان الأعمدة، والزخارف النباتية الملتوية، والأشكال الحيوانية المتراصة والمتناظرة، والأشكال الهندسية المتلاحقة، والنقوش الجدارية والأرضية المزخرفة، وهذا ما لم نجده في عمارة مواقع دادان الدينية حيث اقتصر الفنان على تجسيد الثعابين الملتوية فقط وفي حالات قليلة جدًا،

لوحة ١، عن (Alsuhaibani,2015, 73)

(لوحة ٢ أ، ب)، الأمر الذي يدعي للتساؤل هنا عن الأسباب التي أدت فنانوا موقع دادان عن الامتناع في ملئ سطوح تلك المنشآت الدينية من الداخل بمختلف الزخارف الحيوانية والنباتية المرتبطة بالطقوس والشعائر الدينية، وإبقائها فارغة ومصمتة، رغم وجود المقدرة الفنية الفائقة لديهم؟ ووضعهم لمختلف التماثيل الأدمية الضخمة والقواعد الحجرية الكبيرة على منصات المعبد من الداخل؟.

لقد قدمت العمارة الدينية في موقع الخريبة نموذجاً يحتذى به من الناحية الوظيفية والإنشائية، فقد وصل سمك جدران قدس الأقداس في معبد ذي غيبة إلى ما يقارب ٢,٧٤ سم (لوحة ٣)، وهذا يعتبر مقارنة بما كشف عنه في معابد الجزيرة العربية، باستثناء جنوبها، كبير جداً، كما وصل متوسط سمك الجدران إلى ما يقارب ١٣٠ سم، وهو كذلك في متوسطة كبير نسبياً مقارنة بما كشف عنه في معابد أخرى سواء في العلا نفسها أو في موقع تيماء أو الفاو أو حتى في مواقع شرق الجزيرة.

والبناء بهذه الطريقة يبين مدى فهم المعماري في هذا الموقع للبيئة المحيطة به، حيث أنه استخدم الأحجار الرملية التي تتميز بهشاشتها؛ لذا ولتحقيق شرط المتانة والقوة اضطر المعماري في موقع الخريبة إلى زيادة سمك الجدران لتعويض النقص الوارد في صلابة الحجر الرملي، كما أن في زيادة السمك مقاومة عالية جداً للزلازل الشائعة في منطقة العلا المثبتة علمياً، التي كان آخرها في عام ٢٠٠٧م، ومن هذا المنطلق فإن زيادة السماكة في الجدران يعطيها قدرة أعلى في المقاومة. بالإضافة إلى هذا، فقد مدتنا العمارة في دادان بأنواع جديدة من الأساسات المستخدمة في تقنيات البناء، وهي أساسات ذات أسطح مائلة وأساسات مكونة من رديم ودبش (السحيباني، ٢٠١٧م: ٦٦-٦٧) (لوحة٤أ، ب)، ولم يظهر مثل هذين النوعين

لوحة ٢ أ (Alsuhaibani, 2015, 58)

لوحة ٢ ب (الديري، ٢٠١٦م: ٥٥)

لوحة ٣: سمك جدران قدس الأقداس في معبد ذي غيبة. تصوير سعيد الأحمري

في المواقع الأثرية في الجزيرة العربية، وهذا دليل على مدى تقدم المعماري في هذا الموقع من ناحية فهم البيئة أو حتى المهارة التي توصل لها في استخدام تقنيات جديدة.

نموذج آخر يمكن أن يضاف لمجموعة النماذج المذكورة أعلاه فيما يتعلق بالعمارة، وهي تلك الأعمدة التي صنعها المعماري من كتلة حجرية واحدة، بحيث قام بتقسيم الكتلة إلى جزئين، جزء يكون هو قاعدة العمود والجزء الآخر هو البدن الذي بدوره يُقسم إلى أشكال مختلفة ربما سداسية أو ثمانية أو اسطوانية أو غيرها (لوحة ٥أ، ب).

كل هذه الدلائل تقدم لنا براهين على مدى المقدرة العالية التي تمتع بها فنانو موقع الخريبة قديمًا، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تجريده من الإبداع الفني في إظهار منتجه بأفضل صورة من الناحية الوظيفية. ولكن ما يثير الاستغراب هو لماذا لم يقم بزخرفة تلك النماذج الرائعة وتركها أشبه ما تكون مصمتة؟ أو زخرفة بعضها على استحياء، كزخرفة الثعبان التي عثر عليها منحوتة على نماذج من أحجار مختلفة بشكل متقن، أو زخرفة الوعل التي عثر عليها في بعض العناصر المعمارية الأخرى.

وهذا لا يعني أن كل العناصر المعمارية في هذا الموقع لم تكن مزخرفة، ولكن بالنظر إلى عددها مقارنة بضخامة الوحدات المعمارية ومساحتها في الموقع، تكاد تصنف بأنها فقيرة جداً، وبمقارنة حجم الزخارف المستخدمة في العمارة مع ما كشف عنه في عمارة جنوب الجزيرة، والمتمثلة بالرموز الدينية المختلفة والنوافذ الوهمية المصمتة وتيجان الأعمدة المختلفة والزخارف مختلفة الأشكال سواء تلك الهندسية أو النباتية أو الحيوانية وغيرها، فإن زخارف موقع دادان ضئيلة جدًا.

ونشير هنا إلى نقطة في غاية الأهمية مرتبطة أيضاً بعمارة دادان وقد تكون أحد المفاتيح لحل إشكالية الفقر الزخرفي؛ إذ عثر خلال التنقيبات في معبد دادان على عدد من التماثيل والأعمدة التي أعيد استخدامها في بناء الجدران، والتي يرجح أنها استخدمت في المرحلة المعمارية الثالثة، أي أن جدران هذه المرحلة أعادت استخدام عدداً من عناصر المرحلة الثانية، وكان جزء من هذه العناصر التماثيل والأعمدة. ومن المعلوم أن للتماثيل على وجه الخصوص حساسية كبيرة جداً في هذا الشأن، وهذا بدوره يطرح تساؤلاً مهماً: هل إعادة استخدام

لوحة ٤أ: تقنية البناء بالأساسات المائلة (Alsuhaibani, 2015, pl. 101.A)

لوحة ٤ب: الدبش ورديم الأحجار المستخدم في أساسات البناء. (Alsuhaibani, 2015, pl. 102.B)

هذه التماثيل في المرحلة الثالثة كان بغرض الإهانة الدينية لتماثيل ورموز من عاش في المرحلة الثانية؟ كون وضع مثل تلك العناصر الفنية في بناء جدران المعبد ليس له مبرراً واضحاً، فالموقع يقع بالقرب من المقلع

لوحة ٥أ: نموذج للأعمدة الحجرية في موقع الخريبة (Alsuhaiba-ni, 2015, pl. 119.A)

لوحة ٥ب: تقنية نحت الأعمدة الأسطوانية (Alsuhaiba-ni, 2015, pl. 118.A)

الذي يمكن اقتطاع الحجارة منه بسهولة ونقلها للموقع بدون تكلفة مادية عالية نظراً للقرب الشديد في المسافة؛ لذا لا يمكن تبرير إعادة استخدام هذه العناصر فقط بغية الحصول على مواد خام تسد الفراغات في المداميك الداخلية، مع وجود احتمال آخر هو أن هذه التماثيل لم تكن تعني أي شيء لمن استوطن المرحلة الثالثة، ومن أجل كسب الوقت وخفض الكلفة فقد استخدم ما يوجد حوله لإكمال عملية البناء.

ثانيًا: المجامر:

تعدُّ المجامر من أهم المعثورات الأثرية التي كشف عنها في موقع دادان (الخريبة) خلال مواسم التنقيب السابقة التي نفذها قسم الآثار بجامعة الملك سعود، لارتباطها بالاستخدامات الدينية المختلفة لدى سكان دادان قديمًا كغيرها من القرابين والنذور والأواني المتعددة الأغراض التي يتطلب وجودها في المعابد (الغزي وآخرون، ٢٠١٣-٢٠١٤م: ٣١٣) تقربًا للآلهة، وقد تنوعت تلك المجامر فمنها المكعبة، والدائرية، والأسطوانية، والمستطيلة، والهرمية، والمخروطية الشكل، وأخرى ثنائية الحوض، وأغلبها مصنوع من الحجر الرملي المحمر المحيط بموقع الخريبة، وما يميز تلك المجامر هو تعدد أشكالها وتقارب جودة صناعتها. وما يلاحظ على تلك المجامر أن أبدانها الداخلية والخارجية تكاد تخلو تمامًا من الزخرفة النباتية والحيوانية أو من الرموز الدينية المعبرة عن الفكر الاجتماعي لسكان موقع الخريبة مقارنة بمجامر ممالك جنوب الجزيرة العربية، ومجامر قرية الفاو ونجران، فمثلًا عثر في المواسم السبعة الأولى على عدد (٥٤) مجمرة مصدرها المجمع الديني الذي يحيط بالحوض، تتصف جميع تلك المجامر بتقنية متواضعة،

منها (٤٠) مجمرة مصنوعة من الحجر الرملي، و (١٤) مجمرة من الصلصال، منهما (٦) مجامر فقط مزخرفة بشكل متواضع تمثلت في عمل أخاديد عريضة، وأحزمة عمودية وأفقية، وثعابين مشكلة بالنحت البارز، وأسنان رأس المشط (الغزي وآخرون، ٢٠١٣-٢٠١٤م: ٣٠٩) (لوحة ٦أ، ب).

وفي الموسم الثامن عثر على عدد (١٣) مجمرة، منها مجمرة واحدة يحتمل أنها مزخرفة؟، وفي الموسم التاسع عثر على عدد (٢١) مجمرة، منها مجمرة واحدة يحتمل أن عليها زخرفة بسيطة، وفي الموسم العاشر عثر على (١٥) مجمرة أغلبها مكعبة الشكل، منها مجمرة واحدة عليها زخرفة متواضعة بهيئة مثلثات متقاطعة (الذييب، ١٤٣٧ه: ٢٠٦-٢٠٨، ٢٩٣-٢٩٤). وإذ ما عدنا لحساب عدد تلك المجامر التي عثر عليها في موقع الخريبة وتحديدًا في المجمع الديني للإله ذي غيبة لوجدنا أن عددها وصل إلى (١٠٣) مجمرة، منها (٨) مجامر فقط عليها زخارف متواضعة جدًا.

لقد تميزت المجامر التي كشف عنها في مواقع متعددة من الجزيرة العربية عن نماذج تتفوق وبشكل كبير عما كشف عنه في موقع الخريبة الأثري، ويقصد بهذا التفوق من الناحية الجمالية، أما الناحية الوظيفية والصناعية فقد تشابهت مجامر دادان نسبياً مع ما كشف عنه في مواقع أخرى. فعند مقارنة مجامر هذا الموقع مع مجامر قرية الفاو أو ثاج أو حتى نجران وجنوب الجزيرة العربية، فلا نرى استخدام ابسط الزخارف التي تستخدم على مجامر هذه المواقع في مجامر دادان، كما أن خلو مجامرها من وجود حتى نقوش تدون ملكية صاحب المجمرة يعد مثار استغراب، والحديث عن المجامر هو نفسه الحديث عن العمارة أعلاه، فمن الناحية الوظيفية لا يمكن أبداً الشك في مقدرة الصانع الذي أبدع في صناعة المجامر وقطعها وتشذيبها، لكن يظل التساؤل المهم: لماذا لم يطبق الزخرفة على تلك المجامر بالشكل الذي يتوازى مع إبداعه في صناعتها؟.

ثالثًا: المذابح وموائد القرابين:

هي الأخرى من المعثورات الأثرية المهمة التي يمكن الاستشهاد بها على البساطة الزخرفية في فنون موقع دادان فقد عثر منها على أشكال وأحجام عدة مربعة ومستطيلة الشكل ينتهي بعضها برأس ثور، صنع أغلبها من الحجر الرملي المحمر (الذيبي وآخرون، ٢٠١٣-٢٠١٤م: ٤٢٠-٤٢٦. الذييب وآخرون، ١٤٣٧ه، ٢٢٣-٢٢٨) ، وقد وصل عدد المذابح التي كشف عنها في موقع دادان إلى ما يقارب ٢٥ مذبح كامل و١٠٠ جزء من مذبح (سحلة، ٢٠١٨)، وعلى الرغم من الكم الكبير لتلك المذابح المكتشفة إلا أن العلامة البارزة والعامل المشترك بينها هو عدم زخرفتها جميعاً، فلم تظهر على أي قطعة من هذه المذابح أي زخرفة، سواء حيوانية أو آدمية أو نباتية أو حتى هندسية. وقد عثر في بعض المذابح على مربعات

لوحة ٧ أ، ب. عن الذيبي وآخرون، ٢٠١٤م: ٤٢١-٤٢٢

صغيرة حفرت في وسط المذبح ذات طابع وظيفي بحت كونها تشبه الأحواض الصغيرة الخاصة بحرق القرابين. (لوحة ٧أ ب).

رابعًا: أدوات وأواني حجرية متنوعة:

ويقصد بها تلك الأدوات الحجرية من ثقالات ومسارج، ومساحن، والأحواض، والأطباق، والرحى، الأغطية الحجرية، والزبديات وغيرها، التي وصل عددها بالمئات خلال المواسم السابقة، فمثلًا عثر في الموسم الثامن منها على حوالي (٤٤٨) قطعة (الذييب، ٢٠١١م: ١٢٠) ، وفي الموسم العاشر على حوالي (٧٧٦) قطعة (الذييب وآخرون، ١٤٣٧ه: ٢٠٤)، وقد تعددت وظائفها وأشكالها ومواد صناعتها وتقنياتها، وجميع تلك الأدوات والأواني الحجرية تخلو من الزخارف عدا من زخارف بسيطة تمثلت في حزوز طولية ومتقاطعة بسيطة، وكتابات مسندية الأرجح أن بعضها منقول أو مقدم من تجار قدموا من جنوب الجزيرة العربية (لوحة ٨ أ ب).

الجدير ذكره أن تفسير ورود بعض الكتابات المسندية ذات الطابع الزخرفي وخاصة تلك المتمثلة في رسم حرف الهاء قد اعتراه اللبس ففسر على أنه رسم لزهرة اللوتس (الذيبي وآخرون، ٢٠١٣-٢٠١٤م: ٣٨٨)، والأصح أنها كتابة مسندية تعود لحوالي القرن الثاني الميلادي.

الخلاصة والأبعاد الدلالية:

مما سبق يبرز السؤال الرئيس الذي تمحور حوله هذا البحث وهي الأسباب والدافع التي أدت إلى عدم زخرفة النماذج الفنية والمعمارية المشار إليها أعلاه في موقع دادان، التي ذكرت كعينة؟؛ إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال الشك في المقدرة الفنية لدى من سكن موقع دادان، فالتماثيل الآدمية الضخمة أعطت صورة واضحة وقطعية عن المقدرة والخيال الفني الذي يمتلكه فنانوا دادان قديمًا، كما أن المقدرة والمهارة تم إثباتها من خلال مختلف الأدوات المستخدمة في الحياة اليومية التي أمكن صناعتها إلى حدًا ما مقبول جداً كما في النماذج الفنية المستشهد بها أعلاه، وفي هذا إشارة مهمة مفادها أنه أجتمع لدى سكان موقع دادان عاملين مهمين، هما: المقدرة والمهارة؛ لذا من الطبيعي أن يبرز التساؤل المذكور أعلاه حول عدم تطبيق مختلف الفنون الزخرفية أسوة بالحضارات المجاورة والمعاصرة في الجزيرة العربية وخارجه، والجواب على ذلك لا يخرج عن عدد من الاحتمالات، يمكن إيجازها في الآتي:

أولًا: أن فنون النحت التي وجدت في موقع دادان وخاصة تلك المرتبطة بعمل مختلف أنواع المجامر والمذابح، والأواني الحجرية المختلفة، والأحجار المستخدمة في البناء عملت في المقام الأول لجانب وظيفي فقط، أي أن صانعوا تلك الأشكال الفنية قد أهتموا بالجانب الوظيفي لتلك القطع دون الاهتمام بمعالجة سطوح تلك الأدوات وما يمكن توظيفه من رموز دينية عليها حيوانية وهندسية ونباتية، ولعل في هذا إشارة إلى طبيعة من سكن موقع دادان في تعاطيه مع الزخارف خاصة إذا ما أخذنا بالاعتبار أن الموقع الذي كشف فيه عن هذه المعثورات هو موقع ذو طبيعة دينية مكرسًا للإله ذي غيبة؛ لذا يحتمل أن الإنسان قد أتجه إلى الاهتمام بالجانب الوظيفي وإتقانه دون أي زخرفة لها بعداً جمالياً فقط، كون الزخارف الموجودة هي ذات دلالة دينية كما ورد أعلاه، أما الزخارف الهندسية والنباتية فهي في الغالب تكون ذات بعد جمالي. وهنا ربما قصد الإنسان عدم زخرفة أدواته وعمارته حتى لا تخرج عن الهدف الرئيس الذي وجدت من أجله،

وهي أن تأدي دوراً مهماً في العبادة، فالزخرفة الجمالية ربما تبعد المتعبد عن أداء طقوسه الدينية على الشكل المطلوب منه. وهذا ليس غريباً فمن خواص فن العمارة الإسلامية الدينية عدم زخرفة المساجد بشك مبالغ فيه بوصفها دور للعبادة، كون الزخرفة تخرج المصلي عن الغاية التي جاء من أجلها وهي الانقطاع عن الدنيا والخشوع في طلب الرضا والمغفرة من الله.

ثانيًا: أن هناك جوانب عدة تفسر تلك الأبعاد الدلالية إلى جانب الاهتمام بالجانب الوظيفي أبرزها الاعتقاد الديني السائد لدى سكان دادان قديمًا، الذي يبدو أنه قصر استخدام تلك الزخارف على رموز دينية محددة فقط، أبرزها الثعابين المتلاصقة التي تُعد من أهم رموز الإله ذي غيبة، وهي أيضًا من الرموز الشائعة في ديانة ممالك جنوب الجزيرة العربية، وترمز للإله ود، كتلك الشائعة على معابد مدن مملكة معين في جوف اليمن إلى جانب الرموز الحيوانية الأخرى كالنعام، والرماح، والوعول، والنساء الواقفة في مناظر أمامية، والعائدة إلى مراحل تاريخية مختلفة أبرزها تلك العائدة للقرن الثامن والسابع قبل الميلاد (Arbach, 2007: 108). وهو الأمر الذي يفسر به استخدام تلك الثعابين على بعض أحجار المجمع الديني في دادان من الداخل دون غيرها، وإن كان استخدامها قليل جدًا ومتواضع.

ثالثًا: من المحتمل أن سكان موقع دادان خلال تلك الفترة التي تعود لها المعثورات الأثرية، الواردة أعلاه، لم يكونوا يعيروا أي اهتمام لزخرفة المعابد من الداخل أو غيرها من الفنون الحجرية، والأواني الفخارية ومختلف المجامر، من باب أن اهتمامهم بالفن كان ضئيلًا جدًا حينها ربما خلال فترات زمنية محددة، وهذا ما نلمحه في كثير من الحضارات، فقد أشتهر فنون الرومان في بداية عصرهم بالجد والوقار، لكنهم ما لبثوا أن افرطوا فيها، كما أننا نلمح في بعض فنون جنوب الجزيرة العربية العائدة لفترات محددة خلو بعضها من الزخارف مثال ذلك تلك الفنون العائدة للمرحلة المبكرة التي أتسم فيها الفن بالجمود والخلو من أي زخارف فنية أو ملامح تدويريه واتخاذه الطابع الهندسي التكعيبي الذي ظهر جليًا على فن نحن التماثيل الآدمية والرؤوس الآدمية (باسلامة، ١٩٩٥م: ١٦٦، ٢٣، ٢٢).

رابعًا: يمكن تفسير هذا الغموض والتناقض بالقول بأن سكان موقع دادان ممن أنتجوا تلك الفنون كانوا من ميسوري الحال وذوي القدرة الاقتصادية المنخفضة (الزومان، ٢٠١٥م: ٩٢)، وما يبرر ربما هذا التفسير أن ما يوجد في موقع دادان من مواد خام اعتمدت بالأساس على الجبل المحاذي للموقع من الجهة الشرقية، فكان هو المصدر الرئيس الذي يستقى منه المواد الخام للعمارة وكافة الأدوات التي تستخدم بشكل يومي، حيث نلاحظ أن الحجر الرملي كان هو المادة الأساس المستخدمة في هذا الموقع. وقبول مثل هذا الرأي منطقي كون جلب المادة الخام من هذا الجبل القريب لا يعتبر مكلف مادياً، وهذا يقودنا أساساً إلى أن هذا الجبل كان من المقومات الأساسية التي اختير هذا الموقع بناء عليها، وهذا ينطبق على كثير من المدن العربية القديمة التي روعي في اختيارها البيئات الطبيعية المجاورة لها، كما في قرية الفاو الواقعة بمحاذاة جبال طويق التي شكل وجودها أهم عامل جذب لقيام تلك الحضارة العربية (الأنصاري وطيران، ٢٠١٠م: ٢٤٣-٢٤٨).

خامسًا: يمكن القول أن تلك الفنون التي عثر عليها في موقع دادان خلال المواسم السابقة تمثل مرحلة تاريخية معينة ساد فيها تواضع استخدام الزخارف على مختلف الفنون والسطوح المعمارية والنحتية، بمعنى أن مجمل تلك الفنون تمثل وضعًا سياسيًا ودينيًا محددًا غلب

على الحياة الاجتماعية في موقع دادان فأخرج مجمل تلك الفنون دون الاهتمام بزخرفتها وإظهار العناصر الجمالية عليها، مركزًا في الوقت ذاته على الجانب الوظيفي فقط.

هذا ما يمكن طرحه حاليًا من إجابات أولية في تفسير العزوف الزخرفي لدى مجتمع دادان قديماً، ولعل التنقيبات القادمة من ذلك الموقع تكشف تفاصيل مهمة تختص بالإجابة على تلك التساؤلات.

شكر وتقدير:

يتقدم الباحثان بخالص الشكر والتقدير لعمادة البحث العلمي في جامعة الملك سعود ممثلة بمركز البحوث في كلية السياحة والآثار على دعمهم لهذا البحث.

قائمة المراجع:

الأنصاري، عبد الرحمن، وطيران، سالم، (٢٠١٠م)، «فاو جبل طويق أغرى الإنسان بالاستقرار»، في كتاب الإنسان والبيئة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية، أدوماتو، ص ٢٤٣-٢٤٨.

باسلامة، محمد، (١٩٩٥م)، فن النحت في اليمن القديم، دراسة أثرية مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد.

الديري، محمد علي، العتيبي، محمد سلطان، (٢٠١٣-٢٠١٤م)، «العمارة، في كتاب كنوز أثرية من دادان، نتائج تنقيبات المواسم السبعة الأولى، دراسات آثارية ميدانية (١)، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض، ص ١٤٢- ١٤٣.

الديري، محمد علي، (٢٠١٦م)، «العمارة الدينية اللحيانية كما دلت عليها المكتشفات الأثرية في موقع دادان (الخريبة) بمحافظة العلا»، مجلة دراسات في علم الآثار والتراث، الجميعة السعودية للدراسات الأثرية، ص ١٣- ٦٢.

الذيبي، محمد عائل، العامر، فؤاد حسن، آل غانم، كامل، (٢٠١٣-٢٠١٤م)، «الأواني والمصنوعات الحجرية كتاب كنوز أثرية من دادان»، نتائج تنقيبات المواسم السبعة الأولى، دراسات آثارية ميدانية (١)، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض، ص ٤٢٠- ٤٢٦.

الذييب، سليمان عبد الرحمن وآخرون، (١٤٣٧ه)، ددن عاصمة مملكتي دادان ولحيان (نتائج الموسم العاشر ٢٠١٣م)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، الرياض.

الذييب، سليمان، (٢٠١٤م)، الخريبة (ددن) عاصمة مملكتي دادان ولحيان، التقرير الأولي للموسم الثامن ٢٠١١م، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية.

الزومان، خلود، (٢٠١٥م)، الحياة الاجتماعية في مملكة لحيان دراسة تحليلية من خلال النقوش، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الآثار، كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود.

السحيباني، عبدالرحمن بن عبدالعزيز، (٢٠١٧م)، (تقنية البناء في موقع دادان (الخريبة) الأثري، مجلة الخليج للتاريخ والآثار، ص ٩٥-٥٩.

السعيد، فايز السعيد، عمار، حسني عبدالحليم، (٢٠١٣-٢٠١٤م)، «التماثيل الحجرية»، في كتاب كنوز أثرية من دادان نتائج تنقيبات المواسم السبعة الأولى، دراسات آثارية ميدانية (١)، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض، ص ٢٢٤- ٢٤٥.

الغزي، عبدالعزيز؛ الشهري، محمد، والحاج، محمد علي، (٢٠١٣-٢٠١٤م)، «مجامر دادان»، في كتاب

كنوز أثرية من دادان، نتائج تنقيبات المواسم السبعة الأولى، دراسات آثارية ميدانية (١)، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض، ص ٣١٣.

المراجع الأجنبية:

Alsuhaibani, Abdulrahman, (2015), L'achitecture À dedan (Étude analytique et comparative), These de Doctorat De L'universite Discipline : Archéologie, Universite dy Paris I Pantheon-Sorbonne.

Arbach, Mounir and Audouin, Rémy 2007. Collection of Epigraphic and Archaeological Artifacts from al-Jawf Sites. Ṣanʿâʾ National Museum. 2. Ṣanʿāʾ: UNESCO-SFD / Ṣanʿāʾ: National Museum. [Text in English and Arabic